كلمة الصليب

" فنحن ننادي بالمسيح مصلوباً ، و هذا عثارلليهود و حماقة في نظر الوثنيين" (١كور ٢٣/١)

العنوان " عادي" ،غير جديد، قرأناه و سمعناه تكراراً في الرسائل و العظات و الإحتفالات الليتورجيّة ، حفظناه و نتغنّى به أحياناً . و لكن ،في كل مرة نريد أن نحيط بإحدى زوايا القديس بولس اللاهوتيّة ، لا مناص لنا من العودة الى كلمة الصليب التي، و إن تكن حماقة لدى اليونان أو عثاراً عند اليهود ، تمثّل لنا حكمة الله و قدرة الله . لا بل تمثّل ربما نقطة الإرتكاز في بشارة بولس . لذلك أقترح للعرض التصميم المصوّر الآتي :

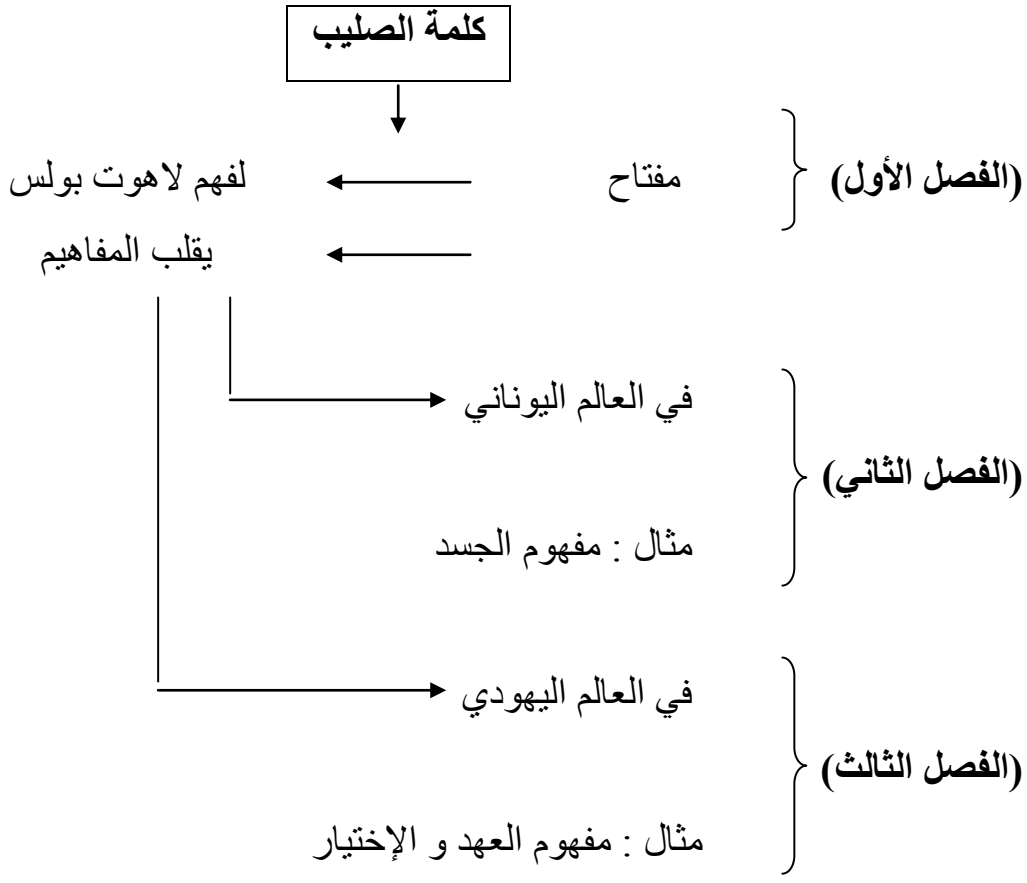

خاتمة ← بين العالمين : وحدة الجسد و اكتمال العهد

خدمة الفقراء و وحدة الكنيسة

← في عالم اليوم ؟

الفصل الأول

يبرز لاهوت الصليب بشكل خاص و مميّز في رسائل القديس بولس الى أهل كورنتس، لكنه حاضر في العمق في كل الحقول اللاهوتيّة الأخرى التي تطبع كتاباته ، مثل مفهوم الإختيار(١تسالونيكي) أو الإيمان والبر، الحريّة و الخلاص (روما ، غلاطية،الخ...)(١) بل يبدو أن مفهوم الصليب يحرّك حياته و ردّات فعله و إجاباته على مشاكل الكنائس التي أسّسها فكيف تنطبع إذاً كلمة الصليب في قلب إيمانه و إلتزامه و كيانه الرسولي؟

لا شك أن القديس بولس هو وريث الكرازة المسيحيّة الأولى التي ترى في موت المسيح و قيامته حدث الخلاص الأساسي و الإسكاتولوجي ، فالكثير من المقاطع في رسائله تشهد لتأثّره بهذا الإرث و تُظهر تبنّيه لتقليد الجماعة الكنسيّة الأولى في أنطاكية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ١ تسالونيكي ١٠/١ و ٤ / ١٤ ؛ ١ كورنتس ٣/١٥-٥ ؛ غلاطية ٤/١ ؛ فيلبي ٦/٢-١١ ؛ روما ٣/ ٢٥-٢٦،الخ.

لكن بولس أعاد قراءة و تفسير حدث الموت و القيامة هذا ، من خلال عمق مفهوم الصليب فكان خلاّقاً في عيشه له و تعبيره عنه، الى حدّ أنه نقل اللاهوت المسيحي- إذا صحّ التعبير- من " مفهوم الموت الى مفهوم الصليب" (٢) . و ذلك واضح في نصوص عدّة تبيّن أهميّة قراءة " إنجيل المسيح " على ضوء حقيقة الصليب، حدث الخلاص الوحيد و مرجع الإيمان الذي يعلنه بولس بأسلوبه الشخصي ، من خلال إختباره الخاص لسر المسيح في حياته، و لسر الكنيسة التي يسعى الى بنائها في المسيح . نقرأ أيضاً بعض المراجع على سبيل المثال :١ كورنتس ١٧/١ ؛ ٢/٢ ؛ غلاطية ١/٣ ؛ ١١/٥. النتيجة واضحة : بالنسبة لبولس كلمة الصليب و معرفة المسيح المصلوب،هذه هي النقطة المركزيّة لكل خطاب

---

(١) J. BECKER, *Paulus – Der Apostel der V✱lker*, Tübingen, Mohr Siebeck, 1989.

(٢) J. ZUMSTEIN " La croix comme principe de constitution de la th■ologie paulinienne", dans

A. DETTWILER, J.-D. KAESTLI, D. MARGUERAT (■ds.), *Paul, une th■ologie en construction*, Gen⬟ve, Labor et Fides, 2004, pp.297-318

ولكل حياة في المسيح. كلمة الصليب هذه ليست شرحاً بشرياً و ليست مجرد محاولة فهم واقع موت المسيح يسوع ،إنما هي المفتاح لتفسير هذا الحدث، بمعنى أنها تلقي الضوء على واقع إنساني جديد ، فيه ينتصر نهائياً حب الله على هلاك الانسان الخاطىء . انطلاقاً من هذه النظرة الجديدة تحمل كلمة الصليب أبعاداً ثلاثة:

- إنها بدايةً، كلمة **"لاهوتيّة "** - بالمعنى الأوّلي – أي كلمة تخبر عن الله . تخبر عن حقيقته و عن حريته في الحب . تكشف إختياره الأزلي و عطاءه اللامتناهي الذي يتخطّى انتظارات الانسان ، المحدودة مهما تكن (١ كورنتس ٢١/١-٢٥) .

- لذلك هي ثانيةً، كلمة **" فصل "** (القمح و الزؤان) . كلمة حُكم. وحدها قادرة أن تدين جذريّة الخطيئة في الوجود البشري القاصر عن فهمها (١ كور ١٩/١-٢٠) .

- إنما ليست هذه الخاتمة ، فكلمة الصليب ثالثاً كلمة **"خلاص"** تكشف إمكانية معرفة من نوع آخر و تخلق فسحة حقّة للحياة الجديدة (١كور ١٨/١و٢١ ؛ ٢/٢ و ١٢-١٦).

إذاً كلمة الصليب في خطاب بولس هي المفتاح لفهم لاهوته و لقراءة مجمل واقعه كرسول و كمؤسس لجماعات كنسيّة من أصل وثني و يهودي في المجتمع الروماني الهلّيني . و هي أيضاً المرجع الذي يقلب المفاهيم و القيم المنتشرة في هذا المجتمع. في ١ كورنتس ١٨/١ -٥/٢ نرى أن كلمة الصليب تزعزع بشكل جذري بناء المعرفة و الحكمة بحسب فلسفة اليونان ، كما و أسس التقليد الديني في شريعة العهد القديم كما يراها اليهود . إنها تخلق أزمة كلّما حاول الإنسان وضع يده على الله ، كلّما ادّعى امتلاك الله و معرفة سرّه و طريق الوصول إليه. المسيح **المصلوب** الذي يبشّر به بولس و الذي يمثّل "اللامعنى" بالنسبة لهذين العالمين ، يُسقط في الوقت عينه الحكمة اليونانيّة و الانتظار اليهودي، أي بمعنى آخر، يُسقط كل تصوّر بشري عن الله ، كل صورة يتمسك بها الإنسان ليدّعي ، حصراً من خلالها، معرفة الله و الإحاطة به و نيل رضاه.

و لكن هذا الإنقلاب لا يخيفنا . لا يخيف بولس على الأقل، لأنه يجد واقع الصليب في الجماعة الكنسيّة التي يراسلها (١ كور ٢٦/١-٣١ : أنظروا الى دعوتكم) ، و في ضعفه الشخصي الذي تملأه قدرة الله (١ كور ١/٢-٥) . هذا هو حضوره الرسولي و الخدمة التي

عاشها على ضوء كلمة الصليب. رغم المخاطر (٢ كور ٤) و الدموع (٢ كور ١٠-١٣)، تبقى كلمة الصليب الضمانة الوحيدة لخصب رسالته، حيث تتجلى قوة الله في ضعفه ، و حياة يسوع في موته. إنه خلاص الله يأتي من حيث لا ينتظره الإنسان ، و لكن مشروع الخلاص هذا هو كلمة بولس الأخيرة في إعلان إنجيله، لليونانيين و اليهود على السواء.

كيف يمكن لنا إذاً أن نقارب هذا التغيير الجذري الذي أحدثته كلمة الصليب في مفهوم بولس الإجتماعي و الديني؟ لنتوقف عند موضوعين إثنين نقتبس أولهما من العالم اليوناني و الآخر من التقليد اليهودي.

<u>الفصل الثاني</u>

المثال الأول هو مفهوم "الجسد" كما يبدو لنا في ١ كورنتس . نستنتج من سياق الرسالة أن هؤلاء الكورنثيين هم هواة بلاغة و فصاحة ، يبحثون عن أساليب البيان البشريّة في الخطاب، يُعجبون بعلم الكلام و يتغنّون بالبلوغ الى المعرفة (١ كور ٢/٨-٣) . هذا الفكر اليوناني المتأصّل يدعوهم الى احتقار "الجسد" من خلال خطيّن متناقضين: إمّا التفلّت بإسم الحريّة (١ كور ١/٥ ؛ ١٢/٦) و إمّا الإمتناع عن الزواج (١ كور١/٧) ، لا بل يسعون الى اكتساب المظاهر الروحيّة الخارقة مثل النبوءات و التكلّم بلغات و كل ما يمنحهم التوهّم أنهم يفوقون الآخرين(١ كور ٧/١٢) . على مجمل هذه التخطيّات سيجيب بولس مستعملاً لغة " الجسد" الذي يصبح مجال التواضع و اللقاء و المحبة . الكلمة (s∗ma) في الثقافة اليونانيّة لا تخلو من مخزون سلبي، كما يشهد لذلك إستعمال البيتاغوريين ثم أفلاطون لكلمتي (s∗ma/s⬟ma) أي " الجسد/ القبر" ، مما يوحي بمفهوم الجسد كقبر للروح أو للفكر. على صعيد آخر، كان اليونان يمجدون الجسد في النحت و الأدب ، ساعين الى فكرة الجمال المطلق البعيدة عن الواقع الأرضي. تجاه هذه المفاهيم سينتقل بولس جذرياً من فكرة الجسد هذه الى واقع التجسّد. كيف؟

في ١كور ٥-٧ يتكلم بولس عن الجسد في مفهومه المادي الطبيعي و في بعده العلاقاتي. ثم يتابع فكرة التواصل مع الآخرين من خلال صورة المائدة و العشاء المشترك (١كور٨-١١)،الى

أن يبلغ الى جسد الرب الذي نتقاسمه (١ كور ١٠-١١) ، و من خلاله تبنى الكنيسة جسداً واحداً لـه أعضـاء كثيـرون (١ كـور ١٢-١٤) ، بإنتظـار الجسـد "الروحـاني" القـائم مـن المـوت (١كور١٥) (٣) .

فـي هذه المسيرة " الجسديّة" سنتوقف علـى بعض النقـاط فـي ١كـور٦/١٥-٢٠ بينمـا يـذكر بـولس حالـة زنـى فـي الجماعـة ، يلفت إنتباهنـا تعبيـر غريـب مـن نوعـه يجمـع فيـه بـين الواقـع المعيوش و بين الإستشهاد بالكتاب المقدس، يقول فيـه : "أم أنكم لا تعرفون أن من اتحد بـامرأة زانية صار و إيّاها جسداً واحداً ؟ فالكتاب يقول :" يصير الإثنان جسداً واحداً " و لكن من اتحد بالرب صـار و إيّـاه روحـاً واحداً" (١كور ٦/١٦-١٧) ، فهو هنـا يسلّط الضـوء علـى موضـوع الوحدة ، الإتحاد مع الآخر. سواء استعمل لفظة الجسد أو الروح فهو يعنـي الإتحـاد مـع الشـخص الـذي أبحـث عن العلاقـة معـه. لـم يعد الجسد إذاً مجـرد غـلاف خـارجي أو قشـرة سطحيّة ، إنـه المجـال الجغرافـي للعلاقـة ، إنـه نوعيـة الكيـان الـذي أحيـاه مـع الآخـر، مـن أجـل فسـحة الخلـق و الخصـب ، أو درب الانغـلاق و المـوت . مـن هنـا يظهـر إحتـرام الجسد كتعبيـر عـن احتـرام الشـخص و احتـرام روح الله السـاكن فيـه و الجاعـل منـه هيكلاً لـه (١ كـور ٦/١٩-٢٠) .هـذه الخطوة الأولى في تغيير مفهوم الجسد لدى الاغريق سوف تسمح لبولس بتجاوزها الـى خطـوة أخرى أكثر جرأة ، و هي تعريف الجماعة المؤمنة كجسد المسيح ، و ذلك من خـلال تقاسم جسد المسيح السريّ على مائدة الكنيسة.

بعد أن نبّه الأقوياء الى احتـرام وهن اخـوتهم و عـدم اسـتعمال حـريتهم لتشـكيك ذوي الضـمائر الضعيفة (١ كور ٨/١١-١٣)، عاد بولس يركّز على محبة المسيح التي تجعل منهم جسداً واحداً لأنهم يتشـاركون بـالخبز الواحـد (١ كـور ١٠/١٧) . فعشـاء الـرب شـراكة (Koin∗nia) في كأس البركة و شراكة (Koin∗nia) في جسد المسيح (١ كور ١٠/١٦) ، لكـي يصـبح معـه الانسان المؤمن واحداً فـي قوّة آلامـه و موتـه و قيامتـه. إنـه شـركة مـع الآخـرين الـذين يصـبحون على كثرتهم جسداً و احداً (١ كور ١٠/١٧) ، و يبنون جسد المسيح – الكنيسة.

---

(٣) R. DUPONT – ROC, Aticle in■dit sur les ■p×tres aux Corithiens.

إنما المشاركة في الخبز لا تخلو من الأخطار إن لم تكن مشاركة حقّة في جسد المسيح. لذلك يخشى الرسول أن تتحول مائدة الرب عند الكورنثيين الى "عبادة للأوثان" ، حيث تصبح آلهتهم بطونهم، و اجتماعاتهم انقساماً ، و مشاركتهم استخفافاً بكنيسة الله و إهانة للفقراء (١ كور ١١/١٧-٢٢) . عندها ينتفض الرسول بشدّة و يطرح علامات استفهام قاسية :"أما لكم بيوت تأكلون فيها و تشربون؟" (١ كور ١١/٢٢) ، فيحذّر من الإنشقاق و التكتل وغياب المحبة و المشاركة و كل ما يهدم الجماعة ، أي كل ما يبطل وحدة جسد المسيح . فالقديس بولس يسلّمهم ما تسلّمه من تقليد إفخارستي (١ كور ١١/٢٣) ، و يستنتج من سر المصلوب الذي أسلم ذاته، أهميّة الإلتزام الصادق بجسد الرب (١ كور ١١/ ٢٨-٢٩) . المشاركة في عشاء الرب و الإتحاد معه في جسده السري حقيقة واحدة تُدخل المؤمن في مفهوم الحياة المبذولة على الصليب، فيعي إنتماءه العضوي للمسيح مع إخوة له ، ضعفاء كانوا أم أقوياء (١ كور ١١/٣٣) ، ليقيموا معاً بناء الجسد في واقعه الجديد ، أي الكنيسة (١ كور ١١/١٨) .

يمكننا متابعة هذا التأمل حول " جسد المسيح " ١ كور ١٢ ، حيث يعيد بولس " المواهب الروحيّة المتنوعة" الى حجمها و يردّها الى مردّها ، الى الروح الواحد الذي يمنحها و يفعّلها . و هنا أيضاً يستعمل صورة الجسد الواحد على كثرة أعضائه و رغم اختلاف خدماتهم و مواهبهم (١ كور ١٢/١٢-٢٦) . و تبقى وحدة الجسد مرهونة بالموهبة العظمى التي تضع كل عطية في خدمة الآخرين ، في خدمة بناء جسد المسيح ، ألا وهي موهبة المحبة (١ كور ١٣) .

نكتفي بهذا القدر لننتقل الى المثال الآخر ، كيف تغيّر كلمة الصليب مفهوم بولس اليهودي للاختيار و خدمة العهد الجديد .

الفصل الثالث

في ٢ كور ٣ يرسم بولس تناقضاً متعدد الأوجه بين العهد القديم و العهد الجديد بين خدمة موسى و خدمته كرسول البشارة الجديدة . فالأولى مكتوبة من ألواح من حجر ، تعتمد على الحرف الذي يميت ، بينما تنبع الثانية من الروح الذي يحيي ، و يطبعها في الداخل في ألواح من لحم و دم ، في عمق القلوب (٢ كور ٣/٣-٦) . في العهد الأول تمتع موسى وحده

باختبار مجد الرب و حجب وجهه عن بني إسرائيل (٢ كور ١٣/٣) ، بينما المؤمنون بالمسيح يعكسون جميعاً صورة مجد الرب بوجوه مكشوفة ، و يتحولون الى تلك الصورة عينها ، و هي تزداد مجداً على مجد (٢ كور ١٨/٣) . خدمة الحرف أدّت سابقاً الى الحكم على البشر و خدمة الروح تؤدي الى التبرير و الخلاص (٢ كور ٩/٣). وحده المسيح ينزع القناع عند قراءة شريعة موسى ، لأن الرب هو الروح، و حيث يكون روح الرب تكون الحريّة (٢ كور ١٦/٣-١٧) . فما الذي يجعل بولس واثقاً كل الثقة و أكيداً من رجائه و جرأته (٢ كور ١٢/٣)؟

إنها ، و يا للمفارقة ، كلمة الصليب!

إستمرار الكنيسة التي أسّسها و اختباره الوجودي لآلام المسيح هما الختم الحقيقي لرسالته (٢ كور ٧/٤-١٢) . كنز البشارة يحمله رسل العهد في آنية من خزف لتظهر من خلال ضعفهم قدرة الله الفائقة (٧/٤) . يحملون في أجسادهم كل حين آلام موت يسوع لتظهر حياته أيضاً في الاجساد الفانية (٢ كور ٤ /١٠-١١) ، فإن كان الموت يعمل فيهم ، فذلك كي تعمل الحياة في مَن ائتمنوا على تبشيرهم و نقل كلمة الخلاص إليهم (٢ كور ١٢/٤) . و هكذا تبدو خدمة العهد الجديد نابعة من الإيمان بالمسيح المصلوب ، المائت و القائم من بين الاموات (٢ كور ٤ / ١٣-١٥) ، حيث كلمة الصليب محفورة في كيان المرسل خادم الجماعة ، لا بل تترك علاماتها المحرقة البليغة في جسده و ظروف عيشه اليوميّة .

على غرار سيده المصلوب عثاراً لليهود و جهالة لليونانيين ، يصبح ضعف الرسول المجال الواسع لتبيان قدرة الله. لذلك يشدّد عزيمته ، فمع أن الانسان الظاهر يسير الى الفناء ، الى الموت، على العكس يتجدد الانسان الباطني يوماً بعد يوم (١٦/٤) . بين الضيق الحاضر و المجد الآتي ليس إلاّ صليب المسيح يجمع الطرفين و يمنح عربون الروح ، حتى تبتلع الحياة كل ما هو زائل فينا (٢ كور ٤/٥-٥) . و لكن هذا الصراع بين الموت و الحياة ، بين الحالي و الأبدي ، هو طريق لا بدّ منه قبل التحول الى صورة المسيح المشرقة ، مما يدعو الى الثقة و عدم الخوف مهما اشتدّت المصاعب (٦/٥و٨) ، قبل التوق الى رضى الرب (٩/٥) ، لا لإرضاء البشر أو لتعظيم الشأن أمام الناس (١١/٥-١٢) هذه الحريّة الباطنيّة هي بالعمق ثمرة قبول مفارقة الصليب ، ثمرة الإيمان بالمسيح المصلوب ، إذ " نحن أسرى محبته ، بعدما أدركنا

أن و احداً مات من أجل جميع الناس ، فجميع الناس شاركوه في موته ، حتى لا يحيا الأحياء بعد لأنفسهم ، بل للذي مات و قام من أجلهم" (٥/١٤-١٥) .

اختيار الرب لما هو محتقر ومزدرى لدى العالم غيّر مقاييس البشارة و الرسالة و الخدمة و لكنه وهب الضعف أن يُضحي خليقة جديدة (٥/١٧) ، و عَهِد الى رسله بخدمة المصالحة (٥/١٨) . هذا هو مشروع كل من يعتبر نفسه من سفراء المسيح ، و كأن الله يعظ بلسانه (٥/٢٠).

خاتمة

و ختاماً ، لعل انتماء بولس الى ثقافات متنوّعة ساعده على عدم اعتبار أيّة واحدة منها مثاله المطلق. فهو يهودي من طرسوس و مواطن روماني بالوقت عينه ، يعرف حق المعرفة تقاليد شعبه الدينيّة و لا يشعر نفسه غريباً عن الحضارة اليونانيّة و عن تركيبة المجتمع الروماني . ثقافته الهللّينيّة مكّنته من فهم طبقات المجتمع و المصالحات بين الملوك و الشعوب فرأى أن صليب المسيح يزيل العداوة و التباعد و يجعل من الجماعتين جماعة واحدة (مراجعة أفسس ٢/١٤-١٦) . و انتماؤه لحضارة ساميّة علّمه أن الانسان واحد لا يمكن شطره بين جسد و روح ، سيّما و أن المفهوم السامي للجسد يجد فيه "جثّة" جامدة بينما يكوّن "القلب" رمز الانسان بكلّيته، فاستطاع بولس أيضاً أن يتّخذ مسافة الناقد تجاه المقاربة الاغريقيّة .

انما هذه المعطيات البشريّة ليست بشيء ، لو لم يلتق على طريق الاضطهاد ذاك الذي أعمى بصره حيناً، ليفتح بصيرته دائماً ، المسيح المصلوب و القائم من الموت الذي قلَبَ كل مفاهيمه رأساً على عقب (أعمال ٩/٣-١٩) . عندها فقط استطاع أن يقول :" إنّي أعدّ **كل شيء** خسراناً من أجل الربح الأعظم ، ألا و هو معرفة ربي يسوع المسيح " (فيلبي ٣/٨) ، هذه المعرفة التي تجعله يشارك في آلامه و يتشبّه به في موته ، على رجاء بلوغ القيامة من بين الاموات (فيلبي ٣/١٠-١١) .

المسيح المصلوب في اختباره الشخصي، هو أيضاً المسيح المصلوب في خدمته الرسوليّة حيث يبذل بولس ذاته بحنان الأب (و الأم) من أجل الذين ولدهم بالمسيح (١ كور ٤/١٢-١٥؛

٢ كور ١٢/١٤-١٥ ؛ غلاطية ١٩/٤-٢٠ ؛ ١ تسالونيكي ٢/٧-١١). يرجو بشدّة تحقيق وحدة الجسد و اكتمال العهد و مواعيد الله ، و لو كان ذلك على حساب نفسه (١ كور ١٣/١؛ روما ٩/٢-٣) . من هنا ، يعتمد بولس لتحقيق رسالته ، خطاً استراتيجياً مميزاً في المشاركة الماديّة .

تتلخص استراتيجيته القتصاديّة أولاً باستقلاليته الماليّة (٤) ، فهو يريد أن يعمل بيديه ، لئلاّ يكون عبئاً على أحد ، ممّا يشكّل دليلاً على مجانية البشارة و سخاء إنجيل المسيح (١ تسالونيكي٩/٢ ؛ ٢ كور ١٢/١٣) . عمله يجعله حراً من كل تكتل أو تحزب أو مجموعة خاصة في قلب الكنيسة (١ كور ٩/١٩) . انما لا يكتفي بولس بذلك ، إذ يمكننا الاستنتاج من ٢كور ١١/٧-٩ ؛ ١٦/١ انه يمارس تكتيكاً آخر رفيع المستوى، فهو يرفض قبول أي أجر طالما يبشّر في كنيسة معيّنة ، لكنه يقبل منها الإعانات عندما ينتقل لتأسيس كنيسة أخرى، و هكذا يوظّف الجماعات الكنسيّة في عمليّة تبشير جماعات أخرى (فيلبي ٥/١؛ ١٤/٤-١٧) . فهو من جهة يحافظ على حريته و مجانية كرازته ، و من جهة أخرى يدعو المؤمنين أن يكونوا جسد المسيح الواحد ، بالمشاركة مع كل جماعة كنسيّة جديدة ، و مع الكنيسة الأم في أورشليم التي يجمع لها التبرعات (٢ كور ٨و٩) ، و هكذا تنتقل القضايا الماليّة و المعونات الاقتصادية من باب " العلاقة الواجبة من المؤمنين الى راعيهم" ، الى باب " العلاقة الأخوية بين الكنائس "، بين أعضاء الجسد الواحد و العهد الجديد .

إنها إذاً استراتيجية تواصل و شركة (Koin∗nia). حيث المجال مفتوح للفقراء و الضعفاء إذ في الضعف يبدو كمال قدرة الله (٢كور ٩/١٢) ، و لأن كلمة الصليب هي حكمة الله و قوة الله لكل من يسلك سبيل الخلاص (١ كور ١٨/١).

و يبقى السؤال مطروحاً على عالم اليوم . باقتصاده و سياسته و قيمه ، هو عالم يُحدث الانقسام و التشتت، و يخلق كل يوم فقراء من جميع الأنواع و على كل الأصعدة . فهل من كلمة جديدة تترجم بها كنائسنا على الأرض كلمة الصليب؟

---

(٤) C. TASSIN, "Finances et mission selon saint Paul", Spiritus 129,1992, pp. 452-467 .